رأى جديد فى

حمــــاد الراوية (*)

للأستاذ السيد يعقوب بكر

الرواية فى عصر حماد :

لن نتحدث هنا عن الرواية فى عصر حماد من حيث هى رواية مستقلة لها مظاهرها الخاصة ، وإنما سنتحدث عنها من حيث هى طور من أطوار الرواية العربية . ومعنى هذا أننا لن نفصل بينها وبين أطوار الرواية العربية قبلها ، وإنما سنتحدث عنها وعن تلك الأطوار معاً . ونحن نقصد من هنا إلى أن نفهم هذه الرواية على وجهها ، وأن نتفهم المقدمات التى أدت إليها .

بدأ العرب يدونون شعرهم فى أخريات القرن الأول للهجرة ؛ وليس معنى هذا أنهم كانوا يجهلون الكتابة قبل هذا التاريخ ، فقد كانت الكتابة معروفة لديهم قبل الاسلام بزمن طويل تدلنا على هذا تلك (الخربشات) Graffiti التى تسمى خطأ بالثمودية واللحيانية ، وتلك (الخربشات) التى عثر عليها فى الصفا بجوار دمشق ؛ وهى كلها مكتوبة بخط ينتمى إلى الخط العربى الجنوبى . ثم هناك نقش النمارا بسوريا ، الذى نجده على قبر امرىء القيس بن عمرو اللخمى ، والذى هو مكتوب بالخط النبطى المشتق من الأرامى ؛ وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨ م . تدلنا هذه الآثار كلها على أن الكتابة كانت معروفة لدى العرب قبل الاسلام . لكن هذه الكتابة لم تكن صالحة لأن تدون بها الأشعار ؛ فقد كانت لا تعبر عن الحركات الممدودة ، كما كانت خالية من الإعجام . إنما أدخل الاعجام على الكتابة فى أيام الحجاج فانتقلت به الأبجدية من ١٥ حرفاً إلى ٢٨ حرفاً ؛ كما أن نظام

(*) راجع فى هذا الموضوع : بروكلمان (Gesch der arab. Litteratur ج ١ ص ١٦ — ١٧ ، وتكملة هذا الجزء ص ٣١ — ٣٤) ونيكلسون (Nicholson A Literary Hiotsry of the Arabs ، ص ١٣١ — ١٣٤) وتشارلز ليال (Translations of Ancient Arabien Poetry ، المقدمة ص ٣٢ — ٤١)

السنة ، والحج فى العمر مرة ، ووجوب ربع العشر فقط فى الزكاة تيسيراً — على ما سبق ذكره — وأكل الولى أو الوصى من مال اليتيم بقدر أجرة عمله ، وإباحة النظر للمرأة عند الخطبة ، ومن ذلك مشروعية الطلاق لما فى البقاء على الزوجية من المشقة والعنت عند تنافر الأخلاق ، وتعذر المعاشرة بالمعروف ، ومشروعية الوصية عند الموت ليتدارك الإنسان ما فاته من البر فى حال حياته ، وتنفذ فى الثلث دون مازاد عليه دفعاً لضرر الورثة ، حتى إذا لم يكن هناك وارث نفذت ولو كانت بكل المال . ومن التيسير فى عموم البلوى إسقاط إثم الخطأ عن المجتهدين ، والاكتفاء منهم بالظن ، إذ لو كلفوا الأخذ باليقين لشق عليهم الوصول إليه .

٤ — النقص ، وهو نوع من المشقة ، لأن النفس مجبولة على حب الكمال فناسب التخفيف فى التكليف . ومما ترتب على ذلك عدم تكليف المجنون والصبى ، وعدم تكليف المرأة بعض ما يجب على الرجل ، كالجهاد إذا لم يكن النفير عاماً (١) .

وفى معنى القاعدة المتقدمة قول الشافعى : « إن الأمر إذا ضاق اتسع » ، وقول أئمة الحنفية : التسهيل يراعى فى مواضع الضرورة والبلوى العامة .

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم .

هذا التيسير فى التشريع ، وهذه الرخص التى أتت بها الشريعة تخفيفاً على العباد فى مواطن الحرج والمشقة — إحدى مزايا الإسلام وتشريعه مما يعد آية على أنه جاء رحمة للعالمين .

— ٧ —

مراعاة مطالب الجسم والروح

كذلك من مزايا التشريع الإسلامى توفيته بمطالب الجسد والروح معاً فى حدود الاعتدال ، فهو وسط جامع لحقوق الجسد والروح ، ومصالح الدنيا والآخرة ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

فالإسلام بتعاليمه ، ووصاياه وتشريعه — جعل المسلمين وسطا بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية ، والمنافع المادية ، وبين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية ، وتعذيب الجسد ، وإذلال النفس (١) ، كما يتجلى ذلك مما أسلفنا ذكره وبيانه فى المميزين الرابع والسادس ، وتلك مزية أخرى من مزايا الإسلام وتشريعه ، تشهد له بمراعاته الفطرة الإنسانية السليمة ، وبتحقيقه مصالح العباد ، وتهيئة أسباب السعادة لهم فى الدنيا والآخرة .

(يتبع) حسن أحمد الخطيب

(١) الوحى المحمدى ص ١٠٢ من الطبعة الثانية

الحركات لم يستقم إلا بعد أيام الحجاج بزمن طويل .

قلنا إن الكتابة العربية قبل الاسلام لم تكن صالحة لأن تدون بها الأشعار . ولكننا نجد الأستاذ بروكلمان (تكملة الجزء الأول من كتابه ص ١٣١ – ١٣٢) يرى أن الخط النبطي الذي كتب به نقش النمارا ربما اصطنع في أمور الحياة الخاصة ، وربما دونت به قصائد الشعراء النصارى بالحيرة ؛ ويصل من هذا إلى أن مرجليوث وطه حسين قد حادا عن الصواب حين أنكرا اصطناع الكتابة لدى عرب الشمال قبل العصر الاسلامي ، وحين انتهيا إلى أن الشعر الجاهلي منتحل كله .

يرى بروكلمان أن بعض الشعر الجاهلي قد دون في الجاهلية ، وأنه لا سبيل إذن إلى إنكار الشعر الجاهلي كله . ونحن لا نستطيع موافقته على هذا الرأي ، أولا لما قدمناه من قصور الكتابة قبل الاسلام عن أن تدون بها الأشعار . وثانيا لأننا لا نعلم شيئا عن ذلك الشعر الذي دون في الجاهلية . ومهما يكن من شيء ، فهو على حق حين يأخذ على مرجليوث وطه حسين إنكارهما اصطناع الكتابة قبل الاسلام ؛ ولكنه يحيد عن الحق حين ينتهي إلى أن بعض الشعر الجاهلي صحيح ، لأن اصطناع الكتابة ليس معناه تدوين الأشعار وحفظها من الخطأ .

على أن بروكلمان يعود فيقول إن تدوين الأشعار في الجاهلية لم يغلب على روايتها شفاها ، وإنما كانت الرواية الشفهية هي الغالبة . وهو في هذا القول يقترب كثيرا من الرأي الذي نأخذ به ، من أن الرواية الشفهية للأشعار كانت السائدة في الجاهلية . بل إننا نرى أن الرواية الشفهية ظلت سائدة حتى أخريات القرن الأول للهجرة ، أي بعد كتابة القرآن بزمن طويل . ونحن نفسر هذا بأن للعادة سلطانها وغلبتها ، وأن العرب ظلوا على روايتهم الشفهية للأشعار جريا مع العادة ومسايرة لها . هذا إلى أن طبيعة الشعر العربي القديم ، وهي طبيعة غنائية ، من شأنها الترغيب في الانشاد والرواية الشفهية ، لا الترغيب في التدوين والنقل .

بدأ العرب يدونون شعرهم في أخريات القرن الأول للهجرة . ومعنى هذا أن الشعر الجاهلي لم يتأد إلينا إلا بالرواية الشفهية . فهل من الممكن أن يكون هذا الشعر قد تأدى إلينا هكذا سالما ؟ وماذا يضمن لنا أنه ظل بعد تلك المدة الطويلة من الزمن على حاله التي صاغه فيها قائلوه ؟ ليس من ريب في أن أبياتا كثيرة يقولها الشاعر في الافتخار بقبيلته وهجاء أعدائها ، فيتناشدها قومه ويتناقلونها ، قد بقيت ولم تحل صورتها . ليس من ريب في هذا ، ولكن هناك قصائد طويلة كالمعلقات ما كانت لتبقى لو كان بقاؤها وقفا على تناشدها وتناقلها . إنما هم الرواة الذين حفظوها لنا ، ونقلوها إلينا . فقد كان لكل شاعر راويته الذي يصحبه ، ويحفظ أشعاره ، وينقلها إلى الناس . وكان كثير من الرواة شعراء ، وكان كثير من الشعراء رواة . فامرؤ القيس راوية أبي دؤاد ، وزهير راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوي ، والحطيئة راوية زهير ، وهدبة بن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل عذرة راوية هدبة ، وكثير خزاعة راوية جميل . وكانت مهمة الراوية لا تقتصر على حفظ الأشعار ؛ وإنما كانت تجمع إلى حفظ الأشعار شرح ما فيها من إشارة ، وإيضاح ما فيها من انبهام ، وحكاية ما أحاطها من ظروف .

كانت رواية الشعر في أثناء الجاهلية وفي خلال النصف الأول من القرن الأول هوية يقصد بها التلهي وتزجية الفراغ ؛ ولكنها أخذت بعد ذلك تصطبغ بصبغة المهنة ، وتلبس لبوس العمل الذي يرجى منه الكسب . وبعد أن كان كل راو مختصا بشاعر واحد في أغلب الأمر ، يفرغ له ويعكف على شعره حفظا ورواية وشرحا ؛ أخذ الرواة يكونون طبقة خاصة ، تعنى بحفظ الكثير من الشعر القديم والمعارف المتنوعة . فلما بدأ تدوين الشعر في أخريات القرن الأول للهجرة ، كان الكثير من أشعار الجاهلية وأخبارها دائرا على الألسنة والشفاه .

إذن فالرواة هم الذين حفظوا لنا الشعر القديم ، ونقلوه إلينا ؛ ولكن ليس معنى هذا أنهم قد أدوا إلينا كل هذا الشعر القديم . فقد امتدت يد الفناء إلى كثير من هذا الشعر[1] . ذلك لأن كثيرا من الرواة قتلوا في الحروب ، أو توفاهم الله ، دون أن

---

(١) يقول ابن سلام الجمحي المتوفى عام ٢٣٢ هـ في كتابه طبقات الشعراء (ط المطبعة التجارية ص ١٦) : « قال يونس بن حبيب ، قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير . ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد » .

يخلفوا وراءهم من يصل روايتهم وينتهى بها إلى غايتها . هذا إلى أن قبائل كاملة ، ومعها رواتها ، قد انتشرت فى البلاد البعيدة بداعى الغزو والفتح ، فنسيت لغة اعرائها وأخبار جاهليتها وأشعار شعرائها الأقدمين . كذلك ليس معنى هذا أن ما وصلنا من الشعر القديم قد وصلنا سالماً صحيحا . فذلك لأنه قد زيدت عليه أشياء ، وسقطت منه أشياء ، وأبدل فيه شىء من شىء ؛ وهو ما يرجع السبب فيه إلى طبيعة الرواية الشفهية وقصور الواعية الانسانية .

قلنا إن رواية الشعر كانت فى الجاهلية وصدر القرن الأول الهجرى هَوِيّة يُقصد بها التلهّى وتزجية الفراغ ، وإنها أصبحت بعد ذلك عملا يرجى منه ورائه الكسب . ونقول الآن إن هذا التطور الذى لحق رواية الشعر ليس إلا صدى لتطور لحق الحياة والناس . ذلك لأن العصر الإسلامى الجديد لم يلبث طويلا حتى أتى بوجوه من الحياة جديدة ، وميول نفسية جديدة ؛ وحتى صرف معظم المسلمين عن الشعر القديم ، ذلك الشعر الذى أصبح يمثل روح الضلال والكفر ، إلى ما يعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة ، ألا وهو القرآن والحديث . وهكذا أخذت صناعة الشعر كما يفهمها القدماء فى الاضمحلال والذبول وأخذت أشعار الجاهلية وأخبارها فى الاندثار والعفاء . لكن شيئاً حفظ على الرواية رونقها الذى كاد يبليه العصر الجديد ، وحفظ على الرواة مكانتهم التى كانت تريد أن تزول ؛ بل جعل من هؤلاء الرواة طبقة خاصة لا همّ لها إلا الرواية ، ولا شغل لها إلا ما أبقته الأيام من الشعر القديم والأخبار القديمة وتدوينها .

هذا الشىء هو مساس الحاجة إلى تفسير القرآن وشرح الحديث ، ومن ثمّ إلى كتابة النحو وتدوين اللغة . ذلك لأن العرب حين انتشروا فى البلاد المفتوحة ، وامتزجوا بأهلها من الأعاجم ، وانتأوا عن الصحراء مهد لغتهم ، أخذوا يفقدون فصاحتهم الأولى ، وجعلوا يلحنون بلاغتهم المأثورة . هنالك غمضت عليهم لغة القرآن والحديث ، وخفيت عليهم أسرارها . وهنالك مست الحاجة إلى تفسير القرآن وشرح الحديث ، ومن ثم إلى كتابة النحو وتدوين اللغة . وكان الشعر القديم هو أداة هذا كله . فكان الفقهاء واللغاة يلتمسون البيت أو البيتين أو الأبيات عند الرواة ، ثم يثبتونها فى كتبهم . وكلما كان البيت أوغل فى القدم ، كان أوثق عندهم فى الاستشهاد .

كانت اللغة إذن تُدرس لا لذاتها ، ولكن لخدمة الشرع ؛ وكان الأدب يُدرس لا لذاته ، ولكن ليكون أداة لشرح الذكر الحكيم . ولكن لم تلبث الحال طويلا حتى فطن العلماء إلى أن فى الشعر القديم ما يصور نفوس الشعراء القدامى ، وإلى أن هناك أسباباً من اللذة والمتاع فى الأخبار القديمة . حينئذ أصبحت الحال غير الحال ، وأضحى الأمر غير الأمر ؛ فإذا بدراسة لغة القرآن تؤدى إلى دراسة الأدب نفسه ، وإذا بالدارسين يصبحون إنسانيين hnmanists بعد أن كانوا متكلمين theologiats .

حدث هذا التطور العظيم فى أخريات عهد بنى أمية ، وفى عهد أبى العباس والمنصور والمهدى من خلفاء بنى العباس . فكان أبو عمرو بن العلاء ، وحماد الراوية ، والمفضل الضبى ، وخلف الأحمر ، أهم القائمين بجمع الشعر القديم وتدوينه ؛ وكان أبو عبيدة والأصمعى ، ومحمد بن السائب الكلبى ، وابنه هشام الكلبى ، وأبو عمرو الشيبانى ، وابن الأعرابى ، والسكرى ، والطوسى ، أهم القائمين بجمع الأخبار القديمة وتدوينها . وكان أعراب البادية يُدعَوْن إلى الكوفة والبصرة ، ويسألون عما يحفظون من شعر وأخبار . ثم أصبح من دأب العلماء فيما بعد أن ينزحوا إلى البادية ، فينتقلوا بين قبائلها ، ويستقوا من هذه القبائل الشعر والأخبار .

تجمعت إذن لدى الرواة والعلماء طائفة عظيمة من الأشعار والأخبار ، ضمنوها ما خلفوه لنا من آثار . وهى طائفة فيها الدلالة كل الدلالة على نوع الحياة التى كان يحياها الجاهليون ، وعلى النزعات التى كانت تعمل فى نفوسهم . وليس من همنا هنا أن نفصل القول فى صحة نسبتها أو انتحالها ؛ إنما نرجع القارىء إلى ما قدمناه من أن طبيعة الرواية الشفهية وقصور الواعية الإنسانية قد أديا إلى زيادة أشياء وسقوط أشياء وإبدال شىء من شىء . أعان على هذا ما تمتاز به اللغة العربية من كثرة المترادفات ، وهو ما قد يؤدى إلى إبدال كلمات من كلمات . وأعان على هذا أيضا أن القصيدة الجاهلية مهلهلة النسج مقلقلة الوضع ، وهو ما قد يؤدى إلى سقوط بيت أو جملة أبيات أو إلى وضعها فى غير موضعها . كذلك قد نجد فى قصيدة واحدة أبياتاً لشعراء مختلفين ، لم يؤلف